المنهج السيميائي

وردت لفظة "السيماء " في الخطاب القرآني في أكثر من سورة كقوله تعالى في سورة "آل عمران" : " و الخيل مسومة" [1] أي الخيل معلّمة ، و قوله في سورة الفتح :" سيماهم في وجوههم من أثر السجود " [2]أي علاماتهم ، و هي نور يغشى الله به وجوه المصلين يوم القيامة عند جمهور المفسرين .و في لسان العرب لابن منظور السومة ، السيمة ، و السيماء تعني العلامة : و سوم الفرس جعل عليه السيمة و قوله عز و جل " حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين " قال الجوهري : مسومة أي عليها أمثال الخواتيم : و قال أبو بكر قوله " عليه سيما حسنة معناه علامة و هي مأخوذة من (وسمت ، أسم) [3] و قد ورد مصطلح السيمياء أيضا في بعض المؤلفات العربية القديمة فابن سينا يسميه علم السيميا و هو علم واسع بعضه يتعلق بالطب و بعضه بالشعوذة و حركة اليدين و دلالاتها و يتحدث ابن خلدون أيضا عن علم أسرار الحروف و هو من تفاريع السيمياء [4]

أما حديثا فمصطلح السيمياء أو السيميولوجيا مشتق من المصطلح الغربي semiologie و semiotique المشتق بدوره من الكلمة اليونانية semeion التي تعني العلامة أو الدليل. و السيميائية اصطلاحا هي " العلم الذي يدرس حياة

---

[1] القرآن الكريم ، سورة آل عمران ، الآية 14.
[2] سورة الفتح ، الآية 29.
[3] ابن منظور : لسان العرب، المجلد 12 ص 312.
[4] - ينظر آن إينو و آخرون : السيميائية الأصول ، القواعد، التاريخ ، ترجمة رشيد بن مالك ، دار مجدلاوي للنشر و التوزيع ، الأردن ، ط12008، ص 28-29.

العلامات في كنف الحياة الاجتماعية " [5] كما عرفها فرديناند دوسوسير : و هي " العلم العام الذي يدرس كل أنساق العلامات (أو الرموز) التي بفضلها يتحقق التواصل بين الناس " بحسب تعريف جورج مونان لها . و الواقع أن نشأة مصطلح "السيميائية" يعود إلى سنة 1752 حيث استخدم في مجال الطب العلاجي ، و كان المقصود به دراسة العلامات الجسدية و اللفظية للمرضى ، و مازالت مادة السميولوجيا تدرس في أقسام الطب إلى يومنا هذا[6]و قد انتقلت إلى مجال الأدب مع بدايات القرن العشرين ، و كانت نشأتها مزدوجة نشأة أوروبية مع دوسوسير و نشأة أمريكية مع شارلز ساندرس بيرس. لقد بشر بها العالم اللغوي فرديناند دوسوسير(1857-1913) أثناء انشغاله بدراسة أهم نظام علاماتي برأيه . يقول : " اللغة نظام من العلامات التي تعبر عن الأفكار و من هذه الناحية فهي مماثلة للكتابة و أبجدية الصم و البكم و الطقوس الرمزية و صيغ الاحترام و الإشارات العسكرية ، و رغم هذه المماثلة تبقى اللغة أهم الأنظمة ، و لذلك يمكن أن نؤسس علما يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية هو علم السميولوجيا ، و سوف يكون علم اللغة قسما من السيميولوجيا" [7]فبرأي دوسوسير السيميولوجيا هي دراسة كل أنواع العلامات داخل الحياة الاجتماعية ، و العلامات متنوعة منها المنطوقة و منها المكتوبة ومنها ما تحققه الإشارات ...إلخ ، غير أن انشغاله العميق بقي في حدود دراسة العلامة اللغوية بما هي دال و مدلول و ذلك في إطار لغوي محض. و في الأثناء نفسها كان شارل بيرس (1839-1914) في أمريكا

---

[5] – Ferdinand De saussure : Cours de Linguistique Generale ,ENAG ? Reghaia, Alger , 1994, p33.

- [6] – Georges Mounin et autres : Dictionnaire de la linguistique ,p294.

[7] – De Saussre : Cours de linguistique Generale ,p33.

يؤسس فعليا السيميولوجيا و يُنظّر لها بشكل فلسفي أغنى و أعقد مما هو عند دوسوسير .[8]

اتجاهات السيمياء: يميز الدارسون في حقل السيميائيات بين ثلاثة اتجاهات أساسية هي :

1-سيميائية التواصل : لا يختص هذا الاتجاه بالعلامات اللسانية فقط بل بكل العلامات اللسانية و غير اللسانية التي تتوفر على قصد التواصل .(بريستو ، جورج مونان ، أندريه مارتيني).

2-سيميائية الدلالة : يستند هذا الاتجاه إلى أبحاث الناقد الفرنسي رولان بارث الذي يقر أن اللغة لا تستنفذ كل إمكانيات التواصل ، فنحن نتواصل بعلامات متنوعة غير أن الدلالات التي تستند إلى العلامات غير اللغوية ما كان لها أن تحصل لولا وسيط اللغة ، و من هذه الزاوية يختلف عن دي سوسير فبرأيه السيميائية فرع من اللسانيات و ليس العكس ما دامت العلامات غير اللغوية لا تكتمل هويتها من غير اللغة.

3-سيميائية الثقافة : يتزعمها في روسيا يوري لوتمان و في إيطاليا امبرتو إيكو، ينطلق هذا الاتجاه من اعتبار الظواهر الثقافية موضوعات تواصلية و أنساقا دلالية ، و قد أحصى إيكو حوال ثماني عشرة نسقا (اللغات الطبيعية ، سميوطيقا الحيوان ، نسق الأشياء مثل المعمار ، الأنساق الخطية ، اللباس ، الإشهار ، بنيات الحكي ... إلخ).[9]

مبادئ التحليل السيميائي:

---

[8] ينظر آن إينو و آخرون : السيميائية ، ص31.

[9] نفسه ، ص34-35 -

- مبدأ المحايثة : و يعني مبدأ المحايثة الارتكاز على داخل النص ، إذ لا يحتاج الدارس إلى " أخبار" مسبقة عن النص و عن تاريخ تشكيله أو تاريخ صاحبه بل يقتصر موضوع السيميائية على الأشكال الداخلية لدلالة النص أو التمفصلات المشكلة للعالم الدلالي المصغر فمن خلال تجربة القراءة يسعى القارئ إلى بناء المعنى في النص و ذلك البناء يتم عبر مفصلة عناصر المضمون.

- التحليل البنيوي :تبعا لمبدأ المحايثة تحلل السيميائية النصوص تحليلا بنيويا ، على اعتبار أن فهم النص يتم عبر لعبة الاختلافات الطبيعية بين عناصر الدلالة (كبير/ صغير ، ثمين / رخيص ، أعلى / أسفل ، خير / شرير ....) و هذا الاختلاف يفترض وجود نسق مبنين من العلاقات بين عدة عناصر لا يمكن أن تتحقق دلالتها إلا عبر تلك العلاقات.

- تقف اللسانيات عند حدود الجملة باعتبارها أكبر وحدة لسانية بينما تهتم السيمياء بالنص باعتباره زخما علاماتيا و "إنتاجية" بتعبير جوليا كريستيفا.[10]

و يمكن القول أن السيميائية سيميائيات مما يصعّب ضبط إجراءات المنهج السيميائي في هذا المقام و تحديدها بصرامة علمية ، و على العموم فالمحلل السيميائي ينطلق مما يسميه السيميائيون بالمستوى الخطابي و ينتقل إلى المستوى السردي ليصل إلى المستوى المنطقي الدلالي.

---

[10]- آن إينو و آخرون : السيميائية ، ص230-231.

أ-المستوى الخطابي : يُعبر عنه أحيانا بالمكون الخطابي ، و يتقدم المضمون في هذا المستوى كما لو كان مجموعة "صور" نتعرف من خلالها إلى الممثلين ، الأزمنة ، الأمكنة و يحدد الدارس العلاقات القائمة بين هذه الصور (الاختلافات ، المقابلات ، التمثلات ...) و تتسم تلك الصور بتنظيم خاص ، و ذلك التنظيم هو ما يجعل الوضعيات الخطابية في نص فريدة و متمايزة.و لعل تحليل المكون الخطابي يهدف إلى " تحديد الطريقة التي يشكل بها هذا التمفصل : صوري/ موضوعاتي أو صور موزعة في ترتيبها إلى مسارات /قيم موصوعاتية الخطاب "[11] و هذه القيم ليست جاهزة في النص بل يتم بناؤها انطلاقا من المسارات الصورية .

ب-المستوى السردي: يصنف التحليل في هذا المستوى ملفوظات النص إلى فئتين : ملفوظات الحالة أو الكينونة و ملفوظات العمليات أو الفعل و ينبني التسلسل السردي على أربعة أطوار مرتبطة منطقيا ، و هذه الأطوار هي طور "التحريك" حيث يفعل العامل فعلا يكون محركا لفعل عامل آخر، و طور "الكفاءة" حيث القيام بالفعل و قيادة النشاط تتطلبان شروطا لتحقيقه و حيث يكون الفاعل ممتلكا للوسائل التي تمكنه من القيام بالفعل، و طور الأداء و هنا " يفضي الحدث الذي يقوده الفاعل المنفذ إلى تحويل الحالة " ثم أخيرا طور التقويم و يخص مختلف عمليات التقييم المتعلقة بما تم تحويله و النظر في الفاعل المتبني للتحويل.[12]

---

[11]- نفسه ، ص235.

[12] - نفسه ، ص236.

3-المستوى المنطقي الدلالي :وهذا المستوى هو المستوى العميق في التحليل و هو يهدف إلى إعطاء تمثيل منطقي لشكل المضمون. و يستعمل التحليل هنا المربع السيميائي لألجيرداس جوليان غريماس كأداة فاعلة

و فعالية المربع السيميائي تكمن في كونه يمثل العلاقات بين العناصر تمثيلا منطقيا (علاقات التضاد ، التناقض، التكامل) و بالاستعانة به يتحقق الثراء الدلالي حيث المعنى لا يقوم على تعارضات ثنائية فقط بل على تعارضات رباعية . و لعل القيم الموضوعاتية " المحددة في التحليل الخطابي تجمعها علاقات متبادلة ينبغي أن يساعدنا المربع السيميائي على الفصل في هذه العلاقات و توضيح و تقدير الروابط التي تقيمها فيما بينها [13]

إذا انتقلنا إلى سيميائية الشعر يمكننا الوقوف عند ميكائيل ريفاتير و كتابه "سيميوطيقا الشعر" أين يلح على كون الشعر يحمل بطبعه ازدواجية دلالية ما يجعله مجالا خصبا للقراءة السيميائية و تتحقق تلك الازدواجية عبر نقل المعنى أو تحريفه أو إبداعه ، ما يجعل الشعر تهديدا مستمرا للمحاكاة و تعديلا متواصلا لها . و من الناحية المنهجية يرى ريفاتير أن تحليل الشعر يتم عبر مرحلتين .

المرحلة الأولى هي مرحلة القراءة الاستكشافية ، و فيها تتم إدراك مظاهر لانحوية النص من قبل القارئ و هذا بالاعتماد على كفاءة القارئ اللغوية و الأدبية .

---

[13] - نفسه ، ص240-241

المرحلة الثانية هي مرحلة القراءة الاسترجاعية حيث يبدأ عبرها التفسير الثاني أو التأويل ، و هو تأويل نصي يستند في بناء الفضاء الدلالي للقصيدة إلى آثار كسر القاعدة وما يمكن أن يولده النحو الجديد من "عادات" معنوية جديدة.

ومع هذا تظل التطبيقات السيميائية حول الشعر قليلة بالمقارنه مع التطبيقات حول السرد ،وجدير بنا أن نلاحظ في الختام أن التحليل السيميائي ابتدأ بقراءة النصوص الشعرية باعتبارها علامات لغوية ثم وسع اهتمامه ليدرس كل العلامات النصية اللغوية و غير اللغوية بداية من سيميائية الغلاف إلى سيميائية الخطوط و الألوان و الأشكال و الرسومات و وصولا إلى سيميائية الأهواء و العواطف ...